

نحو خطاب مسيحي جديد

قراءة في وثائق الكنيسة الكاثوليكية

د. عبد الحكيم فرحات

أستاذ محاضر في كلية العلوم

الاجتماعية والعلوم الإسلامية

- جامعة باتنة -

دعا البابا في العشرينيتين الأخيرتين من القرن العشرين إلى تأسيس خطاب مسيحي جديد، يستهدف المسيحي قبل غيره، ويوافق مقتضيات العصر الجديدة المتعددة. ولتحقيق هذا الغرض تشكلت لجنة كاثوليكية، وملتقيات عديدة⁽¹⁾، تبلور عنها مفهوم "التبشير الجديد" برؤاه المعاصرة التي تحاول أن تعيد صياغة التبشير المسيحي صياغة جديدة، بنية وخطابا، وهذا ما أنتج العديد من المشاريع التبشيرية؛ أهمها مشروع يدعى ألفا "مشروع ألفا"⁽²⁾.

ورغم حداثة التبشير الجديد وخطابه وخطورته إلا أنه لم يلق اهتماما بين النقاد المعاصرين، وهذا ما جعلني أحاول تحليل خطابه، والتساؤل حول مقتضيات التجديد، وحول خصوصيات خطابه، وحول ما يمكن أن يستنتج من هذا التجديد والتحول. وهي كلها أسئلة تحتاج تتبعاً للوثائق الكنسية، تحليلاً ونقداً، سيما منها خطاب البابا الرسمي الملقى في 13 جويلية، سنة 2000، وخطاب الكاردينال راتزنق "Card. Joseph Ratzinger" الملقى سنة 2000، موظفا المنهجين التحليلي والمقارن، لاستكشاف الخطاب المسيحي الجديد، تاريخاً ومفاهيماً، ودلالات، أصوغ نتائجها في المباحث الثلاثة الآتية:



1. مقتضيات تجديد الخطاب المسيحي.
2. مفاهيم الخطاب المسيحي الجديد.
3. دلالات التحول في الخطاب المسيحي.

أولاً: مقتضيات تجديد الخطاب المسيحي.

ذكر البابا يوحنا بولس الثاني في خطابه الكنسي الرسمي الملقى سنة 2000 أن تجديد خطاب التبشير صار أمراً لازماً وحتمية يقتضيها الواقع العالمي - سيما العالم الغربي - الطافح بالتغير الثقافي مقارنة مع كل القرون السابقة، وإكراهها حضارياً لا مناص منه إذا أريد للمسيحية البقاء. وما أجمله البابا يوحنا بولس الثاني قد فصله الكاردينال الكاثوليكي راتزنقر في محاضرته الفاتيكانية الرسمية التي ألقاها سنة 2000 مبيناً أن الواقع الغربي المعاصر قد صار عاجزاً بإكراهات مختلفة، ومقتضيات عديدة تفرض على الكنيسة أن تنحو منحى جديداً في التبشير، أهمها مقتضيان وهما:

1. ثقافة العصر الجديد.
2. تطور أركيولوجيا الأديان والدراسات الدينية.

1- ثقافة العصر الجديد:

تبلورت الحداثة في العصر الحديث بمفاهيمها وأطرها المعرفية، وتصوراتها النسبية فلا يقين يرتجى من المواقف الميتافيزيقية والدينية؛ إنما هي معتقدات، ولذلك صارت تنظر إلى الأديان بما في ذلك المسيحية باحترام، لا كحق وبرهان، وهذا ما أضعف اليقين الديني مفسحاً المجال للنظرة المشككة⁽³⁾ وازداد الأمر خطورة، لما التزمت الحكومات الغربية برفض اعتماد التربية الدينية في مختلف المستويات التعليمية بدعوى اللائكية، واستبدالها



بالتربية الموجهة ذات الترعات الإيديولوجية المختلفة، وهذا ما أنشأ جيلا مسيحيا خاويا روحيا غير مؤسس دينيا، يعرف نقد المسيحية أكثر مما يعرف عن المسيحية ذاتها، جيلا ينظر بنسبية وذاتية إلى كل المعطيات الدينية، ولم تلبث أن صارت غثيانا، بتعبير جون بول سارتر.

ولما أسست الحداثة مطلب التعددية الثقافية وحرية المعتقد الديني ظهرت العديد من الطوائف الدينية والاتجاهات الروحية والجماعات السرية في الحيز الغربي، التي لم يعرفها من قبل⁽⁴⁾، والتي إنتقلت إليه بفعل الهجرة من الجنوب إلى الشمال، وقد ارتفع معدّلها كثيرا في القرن الأخير لأهداف اقتصادية وسياسية وثقافية، وهذا ما مهد لهجرة العديد من العقائد الدينية إلى الغرب المسيحي، ليصير بذلك الوسط الغربي طافحا بالمعتقدات، ممكنا للتعارف الديني، مؤسسا للتعايش الديني⁽⁵⁾.

وقد ساهم تنوع تكنولوجيا الاتصال و تنوع الفضائيات وتطور تقنيات الأنترنت أيما مساهمة في نشر الثقافات الدينية المختلفة وحبك التفاعل الديني وعولمة الثقافة الروحية، فصار العالم قرية كبيرة بمقدوره الإطلاع على أي دين، كما صار الإنسان مواطنا عالميا عرضة للتأثر بمختلف التيارات الدينية والروحية التي يجدها في واقعه الاجتماعي ومحيطه الإعلامي وفضائه الافتراضي 'Espace virtuelle'⁽⁶⁾. واكتشف الغربيون معتقدات الآخرين عن قرب، كما اكتشفوا البون بينها وبين ما تقدمه الدراسات الاستشرافية والجهوية، ولم تلبث هذه الأديان المهاجرة أن تأسست؛ فصار الغرب عامرا بمراكز روحية وكليات دينية وجمعيات دينية، وعلى سبيل المثال فيوجد الآن في فرنسا ثلاث كليات إسلامية، وجامعة بوذية، ومئات من مراكز الديانات الشرقية، وآلاف من مراكز اليوغا



الروحية، وهذا ما يثبت أن المسيحية قد صارت تنازع في حيزها الجغرافي من قبل أديان كثيرة وفلسفات روحية عديدة.

ولما انتهى عصر الحداثة ترك المجال لما بعد الحداثة، ليعلن احتضار الإيديولوجيا، وانتهاء التاريخ، وتبلور عصر الذاتية، وبذلك تشكل فراغ روحي رهيب، ومجال ثقافي عاج بطوائف دينية مختلفة لم يعرفها الغرب من قبل، لها ما للمسيحية من حظوظ ومؤسسات ووسائل اتصال، تنازعها بأطروحاتها وعروضها الروحية⁽⁷⁾، وتنافسها بماضيها؛ إذ الغربي -وأقصد هنا العامة لا الخاصة- يعرف المسيحية بحكم التاريخ كما يعرف كثيرا من النقد الموجه إليها بحكم الحيز الجغرافي والتكوين التربوي، بينما لا يعرف شيئا عن معطيات الأديان الأخرى وتاريخها ونقدها، فصارت المسيحية في محل اتهام.

وهذا ما نبه الكنيسة الكاثوليكية إلى خطورة عدم الاهتمام بتبشير الحيز المسيحي، وإلا فسيصير الغرب المسيحي غير مسيحي بعد مدة ليست بعيدة⁽⁸⁾، ولذلك فقد أصدر البابا يوحنا بولس الثاني القرار الفاتيكاني في 13 جويلية 2003 يحذر من خطورة الوضع الروحي في الغرب، وطفو الغثيان، وفقدان الأمل، ويدعو إلى إعادة تبصير الإنسان بالإيمان وضرورة تجديده، وضرورة السعي الجاد لتقديم بديل للتبشير القديم الذي اهتم بصياغة المصطلحات الثيولوجية، وأهمل قلب الإنسان ومواجيده ومقاماته الروحية وأحواله الإيمانية بدعوى أن المسيح قد تحمل خلاص المؤمنين وكفر عنهم ذنوبهم، وهذا ما أنشأ جيلا من أناس يقولون إنا مسيحيون، يقولونها بأفواههم ولما يدخل الإيمان بعد إلى قلوبهم، فلا ذكر، ومجاهدة، ولا ورع، ولا عبادة، ولا دعاء، وماذا يبقى بعد ذلك من إيمان في القلب⁽⁹⁾،



ولذلك يقول البابا: (لا بد من تحديد التبشير، تبشير يفعل الإيمان، و يعلم الإنسان فن الحياة في ملكوت الله الباهرة) (10).

2- تطور أركيولوجيا الأديان والدراسات الدينية المقارنة.

يمكن القول إن القرن العشرين هو عصر الثورة العلمية في الدراسات المسيحية، بما ظهر فيه من وثائق بردية وكشوفات أثرية ومناهج نقدية ونتائج علمية:

أما الوثائق البردية فقد جاد القرن العشرين بالعديد من المخطوطات الكتابية والبرديات ذات الصلة بالدراسات المسيحية واليهودية، والتي ترتد إلى القرون الأولى من الديانتين اليهودية والمسيحية؛ أهمها مخطوطات قمران بفلسطين، ومخطوطات نعيح حمادي بمصر (11).

لقد حوت المكتبتان وثائق عديدة، بعضها لم يسمع عنها من قبل، كمخطوطات الآسينيين المعاصرين للمسيح، وبعضها باد من زمن بعيد لا ترى منه إلا أثارة منه في الكتب، كأناجيل الأبوكريفا التي حرمتها الكنيسة ومنعتها من التداول، وبعضها مخطوط لأسفار الكتاب المقدس الحالي (12)، وهذا ما أتاح الفرصة للنقاد ذوي الاهتمام بالديانات الكتابية، كي يعاودوا النظر في نتائج أبحاثهم حول طبيعة المعتقدات التي سادت القرون السابقة للمسيح (13)، والقرون الأولى من المسيحية، لتظهر بذلك العديد من القضايا التي لم يكن يعلمها أحد، مؤكدة أن الكثير من العقائد المسيحية المدرسية لم تتبلور إلا بعد المسيح بمدة طويلة، كعقيدة التجسد والصلب والفداء، مساندة بذلك العديد من المعتقدات الإسلامية التي كان يظن العديد من نقاد الغرب إلى وقت قريب أنها من ابتداء محمد ﷺ، كمسألة وجود إنجيل للمسيح التي تتأكد بإنجيل Q (14)، ومسألة نفي الصلب وإلقاء الشبه



على المصلوب التي تتأكد بالرسالة الثانية لبطرس⁽¹⁵⁾، ومسألة نفى صفة المنقذ عن المسيح⁽¹⁶⁾، ومسألة نفى التجسد وعدم قول المسيح بالتثليث، ومسألة كلام المسيح في المهدي⁽¹⁷⁾، وقضية الاعتقاد في وجود مخلص يأتي في آخر الزمان⁽¹⁸⁾، وغيرها، وهي كلها قضايا تدعم المعتقد الإسلامي وتناهض المعتقد المسيحي المدرسي، وتلزم الكنيسة بإعادة النظر في العديد من القضايا التي تمس المفاهيم المسيحية.

وأما الكشوفات الأثرية، فمعلوم أن العهد القديم يحوي الكثير من الإحالات على المواقع الجغرافية التاريخية، ويشير إلى مواقع ومدن لم يعرف لها أثر من قبل، ويذكر مسارات جغرافية اقتفاها الأنبياء ما زالت تحتاج تدقيقاً، ويشيد بحروب قامت بين العبرانيين وسكان كنعان كحروب يوشع⁽¹⁹⁾، كما يشيد بممالك العبرانيين، كمملكة شاول ومملكة سليمان ومملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، ويشيد بأهتها وحضارتها وعمارتها وغيرها⁽²⁰⁾.

فلما تطور علم آثار الكتاب المقدس، وأمكن تحديد المواقع المشار إليها، وتفصيل المسارات النبوية وشخصاتها، والكشف عن معالم الممالك المتحدث عنها⁽²¹⁾، تبين أن الواقع غير ما ذكر الكتاب المقدس؛ التوراة تقول إن إبراهيم ولد في أور الكلدانيين، بينما النقد الأثري يثبت أن أور لم تسم بهذا بأور الكلدانيين إلا بعد إبراهيم بمدة طويلة في القرن السابع قبل الميلاد، أي بعد وفاة الذي نزلت عليه التوراة، موسى عليه السلام بثمانية قرون⁽²²⁾.

التوراة تشيد بمملكة إسرائيل التي ملأت الدنيا بأهتها بينما علم الآثار ساكت لا ينس بقول، فهل يعقل أن يكون مملكة إسرائيل كما يصورها أهل الكتاب، ثم لا يبقى لها أثر⁽²³⁾؟ التوراة تخبر عن مواقع وحروب، تمت في عصر يوشع، بينما التاريخ والآثار يثبتان أنهما وقعا بعده بزمان غير يسير؟⁽²⁴⁾.



ولما تطور العلم بمخطوطات الكتاب المقدس، وتقدمت الدراسات الأثرية المتعلقة به، تبين اختلاف نسخ الكتاب المقدس وتضارب رواياته، ومخالفته للواقع التاريخي، والمعطى الأثري. وقد تكونت حلق دراسية لهذا الغرض، وتعددت المداخل النقدية، كل يكشف جانباً من مكنون الكتاب المقدس، ولم تلبث هذه التوجهات النقدية أن أفرزت اتجاهات مسيحية⁽²⁵⁾، تنتصر لمقولات بعض الفرق المسيحية البائدة التي حكمت عليها الكنيسة من قبل بالهرطقة، أهمها على الإطلاق الكنيسة التوحيدية، التي تذهب مذهب الإسلام في كثير القضايا العقيدية والمسيحولوجية، وصار لها أتباع في مختلف بقاع العالم⁽²⁶⁾.

وأخص بالذكر هنا منتدى المسيح (Seminar Jesus)، الذي تكون في العشريتين الأخيرتين، والذي جمع خيرة علماء الوقت الحاضر، 280 عالماً من خيرة علماء الدنيا في مقارنة الأديان ونقد الكتاب المقدس، ليثبتوا ما تكره الكنيسة؛ يقولون إن المسيح إنسان عادي، كان له إنجيل نسميه إنجيل الأقوال، أما الأناجيل الحالية فليس له فيها سوى خمسة عشرة قولاً، وما عداها فلا تثبت نسبتها إليه، كان يرى في نفسه مجرد مصلح بسيط للواقع اليهودي ولذلك بقي في كفر ناحوم، ولم يخرج منها إلى باقي بقاع الدنيا، ما ادعى أبداً أنه ابن الله كما يرى النصارى، ولا قال بالتثليث ولا بالتجسد، ولا نعرف حقيقة أصلب أم لم يصلب؟ وأهم نتيجة توصلوا إليها أن المسيح لم يدع أنه ابن الإنسان المخلص المنتظر، إنما هذه وظيفة شخص آخر يأتي من بعد⁽²⁷⁾، وكل هذا يدفع للتساؤل حول حقيقة الكتاب المقدس: أهو كلام الله فعلاً؟ أهو إلهام حقاً؟ وإذا كان كذلك فكيف توجد فيه مثل هذه الأخطاء، فهل الرب أخطأ -تعالى عن ذلك-؟⁽²⁸⁾.



وفي إطار هذه التوجهات النقدية المؤسسة لم تستطع المسيحية التمسك بمفاهيمها وأطروحاتها العقدية القديمة، وهذا ما بلور حركة نقدية عالمية تحاول صياغة المفاهيم المسيحية صياغة جديدة، توافق نتائج البحث العلمي في الدراسات الكتابية، كما يظهر مثلاً في مفهوم الوحي المسيحي؛ فالتقليد المسيحي كان يرى أن الكتاب المقدس هو كلام الله لفظاً ومعنى؛ أي أن كلاماً من المعنى والتعبير من الله، وهذا ما يعرف بنظرية الوحي الكامل. فلما تبين النقد، وتأكد الخطر، كما أشرنا آنفاً، صار التمسك بهذه المقولة مكابرة⁽²⁹⁾. ولذلك فقد اقترحت نظرية الوحي الناقص التي ترى أن الله أوحى معنى الكتاب المقدس فقط، وأما التعبير فهو من الإنسان الملهم؛ أي أن الكتاب المقدس هو تعبير بشري عن المعنى الإلهي، فإذا وجد خطأ لا ينسب إلى الله تعالى وجلاله، ولكن ينسب إلى الإنسان الملهم؛ لأن شأنه الخطأ والتعبير بطبيعته الإنسانية، وثقافته النسبية، وبذلك استطاعوا تجاوز النقد الموجه للأخطاء الموجودة في الكتاب المقدس⁽³⁰⁾.

وبتحليلنا لمقتضيات تحديد خطاب التبشير الجديد يتأكد أنه استحابة لهموم فكر ديني معاصر وواقع حضاري متأزم وإكراهات حياتية و تطور علمي في مجال الدراسات الدينية والأثرية، لما عجز التبشير القديم عن القيام بها⁽³¹⁾، وبذلك ظهر التبشير الجديد.

ثانياً: مفاهيم الخطاب المسيحي الجديد:

ما هي مفاهيم الخطاب المسيحي الجديد؟ ما الذي يميز التبشير الجديد عن الخطاب القديم؟ لقد تبلور الخطاب المسيحي الجديد في إطار مشروع التبشير الجديد الذي أصدرته عن الكنيسة الكاثوليكية، بتوجيه من البابا يوحنا بولس الثاني، يستهدف المسيحيين قبل غيرهم، يحاول أن يقدم المسيحية كمنهج للحياة الفاضلة لا كقانون إيمان؛ يقول



الكاردينال راتزينقر: إن معنى التبشير الجديد هو الهداية إلى الطريق⁽³²⁾، وتعليم فن الحياة⁽³³⁾، الذي يقوم على أربعة مفاهيم، وهي الشهادة، وملكوت الله، ويسوع المسيح، والحياة الأبدية، أحاول أن أحللها فيما يلي:

1- مفهوم الشهادة 'Conversion'

يستخدم خطاب التبشير الجديد مصطلح التحول الذي يعني بالعربية "التحول" للدلالة على ما أطلقت عليه الشهادة، ويوليها اهتماما بالغاً، لما تبين الشطط الذي ينجم عن مفهوم الشهادة في التبشير التقليدي.

إن مقتضى الشهادة في التبشير القديم أن تعلن تسيحة الإيمان: تعقد التثليث، أب وابن، وروح قدس، كل واحد منهم إله كامل، وتجزم بتجسد الابن الإلهي في شخص يسوع، وتؤمن بأنه قد صلب فداء للبشرية عن خطيئتها وخلاصاً لها، لتندرج بذلك في سلك المؤمنين، وبذلك تأكد أن الشهادة في التبشير القديم مجرد اعتقادات وتصديقات لا صلة لها بالسلوك أو العمل، وهذا ما جعله لا يرتقي بحال من الأحوال لأن يصير نموذجاً للحياة، الحياة الفاضلة.

وهذا الاختزال الديني هو ما يراه الكاردينال راتزينقر-القائم بشؤون التبشير في الفاتيكان- سبباً لنشوء جيل من المسيحيين لم يدخل الكثير منهم الكنيسة مرة في عمره، جيل من المسيحيين ليس لهم من المسيحية سوى الاسم، يلهجون بالمسيحية، ولما تعرفها قلوبهم بعد؛ إذ أن الشهادة في التبشير القديم تعتمد الإقرار اللساني المتلقى عن تقليد، ولا تولي السلوك اللساني اهتماماً، ولا تعباً بمقامات القلب وأحواله؛ ولذلك يقول راتزينقر:



(للأسف، إننا نحن المسيحيين، نحيا تبعا للشعار: الله غير موجود، وإذا وجد فليس له شيء يفعلُه) (34). كأن التبشير التقليدي يدعي أنه لا تعلق بين الإيمان والقول والعمل؛ وإن كان كذلك: فكيف ينبعث الإيمان في القلب ولا تفكر؟ وكيف يتذوق الإنسان رحيق المعرفة ولا ذكر؟ وكيف يتقرب العبد من ربه وبينهما أحجة من غفلة وآثام؟ وكيف يتلذذ بجمال الوصال الإلهي ولا سير روحي ولا وصال؟

ويزداد الأمر خطورة إذا علمنا أن المسيحيين يعيشون في إطار حضاري يتميز بما بيناه في مقتضيات التجديد، فلا تكوين ديني، ولا تأصيل مسيحي، ولا تأسيس روحي. ولذلك فقد قال اللاهوتي الكاثولكي المعاصر ميتز 'Metz': (إن المشكلة الحقيقية لعصرنا هي أزمة الله 'La crise de dieu'، التي تظهر في غيابه-يقصد من القلوب-المقنع بتدين فارغ) (35)، وهو الأمر الذي يبين الخواء الروحي التي تعيشه المسيحية -وأخص بالذكر الكنيسة الكاثوليكية الحاضرة-، ويفسر انتشار الطوائف الدينية الفلسفات الروحية والرياضات اليوغية، سيما البوذية التي ملأت القلوب بتأملاتها ورياضاتها النفسية ومسالكها الإفراغية 'Le vide mental'، وهذا ما يفسر سبب اكتساح التصوف الإسلامي للعالم الغربي المعاصر؛ لما اشتغل بالقلوب واهتم بالمقامات وأحوال النفس؛ أي بما تفتقده المسيحية.

ولما كان مفهوم التبشير التقليدي للشهادة غير واف بالمقتضيات الروحية والنفسية لإنسان ما بعد الحداثة، اقترح التبشير الجديد نموذجاً جديداً، يجعل من الشهادة نقطة تحول في نمط الحياة الموصولة بالله، يشمل الفكر والخواطر والروح والسلوك والعلاقات الاجتماعية، ولذلك يؤكد راتزنقر أنه لا يمكن أن يتم التبشير بالكلام فحسب، بل يجب



أن نبي حياة، ونكوّن الجماعة الإيمانية؛ لأن الشهادة الفردية لا تنتج شيئاً⁽³⁶⁾. لتصير بذلك الشهادة تصديقا وقولا وسلوكا وجماعة، أي شاملة لمقتضى الإنسانية.

2- مفهوم ملكوت الله 'Le royaume de Dieu'

إن ملكوت الله هو مصطلح كتابي، كناية عن الله جل وعلا، تردد في العهد القديم، وفي الأناجيل الأربعة على لسان المسيح، ويعدّه التبشير الجديد مفهوما مسيحيا (نسبة للمسيح) مؤسسا لخطاب يريد أن يصير لنفسه ملاذا للناس، مراعيًا لمقتضيات الواقع الراهن و مصححا لمسار الروحانية المسيحية، ومفاهيم التبشير التقليدي.

إن ملكوت الله في خطاب التبشير القديم مفهوم غامض غير مؤسس، إذ أن الألوهية لا تعني للمسيحي شيئا، سوى الإقرار بالتثليث والتجسد والصلب والفداء⁽³⁷⁾، فهي فعل تاريخي لا أكثر، مسيح تجسد، مسيح اتضع، مسيح صلب، مسيح تحمل وكفر، مسيح خلص، وهي كلها عقائد تاريخية تقضي على عقيدة الحاضر؛ لما لم يبق شيء للإنسان المعاصر يفعله، فمحلها التصديق بالتاريخ لا الشهود بالسلوك والقلوب، كأن المسيحي ابن التاريخ لا ابن وقته، وبذلك تركت النفوس للعادات والشهوات تفعل فيها، لا تشتغل بالوظائف والأسرار الروحية والطقوس الدينية، وإن اشتغل بها أفسد القصد منها يجعلها أمرا عاديا لا سر فيه، كلام يردد وترانيم تغني، تبعد الإنسان عن الخلو بنفسه والصمت المثمر والمراقبة الروحية، وهذا ما أفرز - في نظر الكاردينال راتزنقر- نفوسا خاوية من المعاني الإيمانية والروحية، لا تجد لها ملاذا في هذا النظام العالمي المشوب بالمادية، ولذلك تبلورت ظاهرة فقدان الأمل، وبرزت مفاهيم نهاية التاريخ والعدم والغيبان⁽³⁸⁾.



ويزداد الأمر تعقيدا لما لم يكن القربان والشعائر في المسيحية أمرا ذا بال، ولذلك قال اللاهوتي الكاثوليكي المعتبر متز: "إن المشكلة الحقيقية لعصرنا هي أزمة الله، التي تظهر في غيابه-يقصد من القلوب-المقنع بتدين فارغ، ولذلك فإنه يجب على علم اللاهوت أن يصير لاهوتا حقيقة، أن يصير خطابا حول الله ومع الله"⁽³⁹⁾، وهذا ما يبين المعاناة التي تعيشها الروحانية المسيحية المعاصرة، الناجمة عن طبيعة المعتقد المسيحي، وقيامه على القول دون العمل، وعن شروط التكوين الديني، وعن ملابساته.

ولما شعر المسيحي بهذا الفراغ الروحي في المسيحية اتجه صوب الفلسفات والرياضات الروحية، يقول الكاردينال راتزنقر: "إن موجة العلوم الباطنية وانتشار تقنيات الاسترجاء الآسيوية 'the technique de relaxation' والفراغ الذهني 'Le vide mental' يثبتان أنه ينقصنا شيء في طقوسنا وشعائرننا"⁽⁴⁰⁾.

ولذلك حاول منظرو الخطاب المسيحي الجديد أن يصوغوا مفهوم ملكوت الله صياغة جديدة، ليصير المفهوم وافيا بالتصديق والأحوال، ومقتضى العمل، ليس كلاما تلوكة الأفواه، ولا فئة اجتماعية ينتسب إليها، ولا حزبا سياسيا ينخرط فيه، إنما هو الله ذاته جل شأنه؛ وجوده السامي، وصفاته العلية، وأفعاله السنية، ورعايته الكونية والوجودية، وهذا ما يعبر عنه الكاردينال راتزنقر بقوله: "يجب أن يتحدث التبشير الجديد قبل كل شيء عن الله، يبشر بالله الواحد، الحق، المتيب، القاضي"⁽⁴¹⁾؛ أي أن الكون عامر بالحضور الإلهي رعاية وعلما، قريب من عباده الذين يظنونهم بعيدا عنهم، فاعل في كل لحظة من لحظات الإنسانية ووقائع التاريخ، يسمع الإنسان كما يمكن للإنسان أن يستمع



بقبله إليه. ولذلك يجب تفعيل التواصل مع الله والسعي إليه ليصير المسيحي ابن وقته، لأن الله لا يمكن أن يعرف بالأقوال فحسب (42).

وهذا ما يعطي للخطاب المسيحي الجديد وظيفة جديدة أهمها التبشير القديم كثيرا؛ وهي إحكام التواصل بين العبد وربّه، ووضعه على طريق السير إلى الله حل وعلا ليرتقي المقام تلو المقام، ويتذوق الحال بعد الحال، وتعليمه وظائف الإيمان من صلاة وذكر وتفكر عال، يرغب في الحديث إلى الله والاستماع القلي منه، ويصير بأهمية القربان والعبادة والشعائر (43)، فيصير الإنسان واصلا موصولا، يرى كونه عامرا معمورا بصفات الله، فيفني عن رغبات النفس وهواجس العصر، يراقب نفسه ويسكن إليها متأملا بعيدا عن ضوضاء الطقوس الكنسية وضجيجها، يذوق لذات الوصال والشهود الإلهي، وهذا ما يحجبه عن فلسفات الفراغ الذهني البوذية، لأنه شتان بين شاهد الجمال وتلذذ بالوصال وبين من أفرغ الذهن وخلا إلى حركات الأنفاس.

ويتم تفعيل هذه المعاني في إطار تجمعات روحية تخدم هذه الأغراض، وتسهر على تطبيقها وفق خطط مدروسة، أذكر منها برنامج ألفا "Programme Alpha" وبرنامج نهمي "Programme nehemie"، وهي برامج سير روحي إلى الله، ينمي معرفة المسيحي بالله، وترفع شهوده لصفاته، وتربطه بالجماعة المؤمنة، وبذلك يصير التبشير بتعبير الكاردينال راتزنقر "لاهوتا حقيقة وخطابا حول الله ومع الله" (44).

وما ذكرناه يؤكد أن التبشير الجديد، يطمح إلى الارتقاء بالمسيحي من مستوى التصديق إلى مستوى الشهود الإيماني، ليصير بذلك قادرا على مواجهات إكراهات العصر



المادية والروحية والنفسية ومجاهمة طروحات الفلسفات الشرقية والديانات غير الغربية.

3- مفهوم يسوع المسيح 'Jesus Christ'

بلور التبشير القديم مفهوما عقديا حول المسيح، فهو ابن الله، إله كامل، ابن إله كامل، أرسله الله حبا لعباده، ليتجسد في ابن الإنسان يسوع، ويظهر المسيح المتضع 'عمانويل'؛ أي الله معنا، الذي يقدم نفسه إلى الصليب فداء عن خطيئة البشرية وكفارة لهم، ويصير بذلك الفادي المخلص يسوع المسيح. ولا شك أن هذا المفهوم من التعقيد يمكن، حتى إن كثيرا من المسيحيين لا يعرفون حقيقة هذه المفاهيم، ولا يستطيعون فقه مصطلحاته، ولا فهم المعتقد الذي ينتسبون إليه⁽⁴⁵⁾.

وإذا كانت الكنيسة قد عدت مفاهيم التبشير القديم سرا إلهيا لا ينال، فإن النقد العلمي قد أثبت تاريخانية هذه المفاهيم، وبين امتزاج التاريخي بالأسطوري في قصة المسيح الإنجيلية وبنية المعتقد المسيحي، ليصيرا كلا واحدا، يحسبه العامي والباحث المتسرع حقيقة، وما هو كذلك. ولم يلبث أن ظهرت نظريات حول المسيح التاريخي؛ منها ما يكذب بوجوده، ومنها ما يرى فيه بشرا عاديا، ومنها ضحية صلب تاريخي، ومنها ما يرى فيه مصلحا اجتماعيا، ومنها ما يرى أنه بشر نبي، وإذا كانت هذه النظريات تختلف في مضامينها وفرضياتها فإنها تتفق في التوسل بنقد نصوص الكتاب المقدس لفك الغلاف الأسطوري الذي حبكت به قصة المسيح الإنجيلية وبنى به المعتقد المسيحيولوجي⁽⁴⁶⁾.

ولذلك فإن الخطاب المسيحي الجديد، وهو الذي يطمح إلى تفعيل المعتقد المسيحي وتداول أفكاره، يحاول أن يقدم المسيح تقديمًا جديدًا، متغاضيا عن الجوانب التي



أثارها نظريات المسيح التاريخي⁽⁴⁷⁾، مركزا على المعاني الإيمانية التي تنجم عن الدخول إلى عالم المسيح من خلاص وإنقاذ وفداء وتكفير، وما يمكن أن يثيره من مذاقات روحية وأحاسيس إيمانية، فالمراد بمسيحولوجيا التبشير الجديد كما يرى راتزنقر هو (المشاركة في صليبه، والاتحاد في حبه، وتحويل حياتنا، لنبني إنسانا جديدا تبعا لإرادة الله)⁽⁴⁸⁾، وهو تعريف وظيفي يركز على وظيفة الإيمان بالمسيح، ويتهرب من البوح بحقيقته بدعوى التعالي والأسرار الإلهية، يتهرب لما يثيره ذلك من حيرة واعتراض، ولا يلج في متاهات التنظير اللاهوتي⁽⁴⁹⁾، بغرض الوصول إلى وحدة روحية مع الله جل وعلا وتفعيل الإيمان في النفوس، والاستجابة لإكراهات الحداثة وما بعدها، والتصدي للفلسفات الروحية المناوئة⁽⁵⁰⁾، لا شحذ العقول بنظريات وقوانين إيمان، يذهب أثرها فورا الاشتغال بموضوع آخر.

4- الحياة الأبدية 'La vie Eternelle'

إن المراد بالحياة الأبدية كما يبين الكاردينال راتزنقر هو الاعتقاد في وجود إله حاضر؛ إله يعرفنا و يسمعنا، إله يدخل في حياة الإنسان والتاريخ لكي يقضي بالعدل في الدنيا، ويعاقب في الآخرة⁽⁵¹⁾. وهو الأمر الذي لم يوله التبشير القديم اهتماما، فعزفت قلوب المسيحيين عن النظر إليه، وإن اعتقد فيه البعض نظريا فقد خلا قلبه من أثار الإيمان به، وتلاشت معه المسؤولية الفردية واحتدت الذاتية والأنانية والجزئية، يفعل ما يشاء ولا يأبه لأحد، يقول راتنقر: "للأسف، إننا نحن المسيحيين، نحيا تبعا للشعار: الله غير موجود، وإذا وجد فليس له شيء يفعل" ⁽⁵²⁾.



ولذلك فقد اشتغل الخطاب المسيحي الجديد بإعادة تأسيس مفهوم الحياة الأبدية تأسيساً جديداً يجعل الإنسان مسئولاً عن عمله، مراقباً في كل أنفاسه، مجازي عن كل ما يأتيه متوعداً في الدار الآخرة⁽⁵³⁾، وهذا ما يبعث في النفس يقيناً بأهمية حياته وكرامته ومسئوليته، وتشرفه بالرعاية الإلهية، ليدخل بذلك في عالم اليقظة الروحية والدلالات الإيمانية، فيصير لكل شيء في هذه الدنيا معنى جميل بجمال خالقه، يستطيع أن يتكلم إلى الله وأن ينصت إليه بقلبه، وأن يشعر بجمال الهيبة الإلهية، وأن يطلب نجدة الواقعية، وهذا ما يقوي الشهود الإيماني الذي يجعل من الحياة عامرة بالجمال لا ملل فيها ولا فراغ ولا انتحار، وبذلك تؤسس سمات النفس المؤمنة الراضية بالله التي لا يبقى معها مجال للتفكير في الفراغ الذهني الذي تؤسس له البوذية والفلسفات الهندية.

ثالثاً: دلالات التحول في التبشير الجديد:

بعد أن رأينا مقتضيات التجديد في خطاب التبشير، ومفاهيمه الأساسية، يمكننا التساؤل الآن حول دلالات هذا التحول؟

1- إن الخطاب المسيحي الجديد يؤكد أن الأزمة التي يعيشها الغرب في وقتنا الراهن هي أزمة روحية نفسية، أزمة بناها التفكير المادي، وأسسها الحداثة وما بعدها، وأرساها النقد العلمي، وساهم فيها خطاب التبشير القديم الذي أغرق في تنظيرات لاهوتية سماها أسراراً، وترك الإيمان ومثباته ومقاماته، وهذا ما جعل المسيحي بمنأى عن الإيمان، لأنه سر لا يفقه أبداً، ومنأى عن تركيزية نفسه وتأسيسها الروحي لما انبنى التبشير التقليدي على فكرة الخلاص بالإيمان، الذي يلغي مسؤولية الإنسان الروحية.



2- ينم الخطاب المسيحي الجديد عن تنافس ديني رهيب يعيشه الغرب المسيحي، لما انفتح على الأديان وأسس لتعايشها، وسمح لها بالتواجد، وهذا ما جعل المسيحية في وضع تنافسي مع الأديان الأخرى في استقطاب الأتباع والمحافظة على حيزها التقليدي تنازع في حيزها الجغرافي القديم، تناوغ في مقولاتها ورؤاها، وفي هذا السياق تبلور مفهوم التبشير الجديد.

3- إن عزوف الناس عن المسيحية في البلاد الغربية والتفافهم حول أديان أخرى وفلسفات دينية ورياضات روحية، لدليل على الخواء الروحي للمسيحية الذي أسس لفقدان الأمل وظاهرة الغثيان، وهذا ما اعترف به التبشير الجديد، وحاول أن يتجاوز به باقتراح بديل، يجعلها أكثر روحانية، يدرس أسباب إقبال الغربيين على الأديان الأخرى، ويحاول ابتداع ما يضاهيها.

4- لم يستطع خطاب التبشير القديم أن يستمر في العصر الحديث بمقولات التبشير القديم؛ كالثليث والتجسد، والكتاب المقدس، لما تكونت روح النقد، وتطور البحث العلمي خاصة في علم الآثار والتاريخ ومقارنة الأديان، ولذلك صار ثمن البقاء هو الخطاب المسيحي الجديد وتجاوز مقولات التبشير القديم والتقليد الكنسي، باستخدام المصطلحات التي استخدمها المسيح في الأناجيل، وإعادة صياغة مقولاته بما يتوافق مع مقتضيات العصر الجديد من اهتمام بالأبعاد الوظيفية للدين في النفس والروح والمجتمع، وما يمكن أن يمد المسيحي المعاصر من معاني روحية وآفاق نفسية، وإبراز للجانب المعقول من العقيدة المسيحية وترك ما هو غير مفهوم، وإعراض عن التفسيرات العقيدية. ولذلك



تري أن الخطاب المسيحي الجديد إذا دقت لم يشر مرة واحدة إلى التثليث، ولا إلى الأقانيم، ولا إلى التجسد.

5- يظهر جليا أن التبشير الجديد يطمح إلى صياغة خطاب جديد يقبله إنسان ما بعد الحداثة، يتوافق مع نتائج المعطيات الأثرية والدراسات الدينية التي بلغت شأوا عظيما لم تبلغه من قبل، وتدعمت بأقوى الأدلة، ويظهر ذلك فيما طرح من نظريات جديدة حول الوحي والكتاب المقدس وأخطائه، والإيمان. ويعد ما قدمه منتدى المسيح في وقتنا الحاضر أعظم وأدق ما وصل إليه خيرة علماء هذا العصر في مجال دراسة الأنجيل وطبيعة المسيح، والمسيحانية، والمنقذ المخلص، وقد تبلورت في ضوء هذه الاتجاهات النقدية رؤى دينية مسيحية جديدة، أهمها المسيحية التوحيدية التي تقترب كثيرا من مقررات القرآن الكريم في هذا الشأن.

6- تعامل الخطاب المسيحي الجديد مع النقد العلمي الجديد بطريقة تتجاوزية، فكل ما يثار يرد عليه إن أمكن، وإلا تتجاوز به بالسكوت، أو الرفض الظاهري والاعتراف الضمني به، وهذا ما يظهر من خلال تعاملهم مع مفهوم الوحي، ومفهوم التجسد.

7- يحاول الخطاب المسيحي الجديد أن يصير طريقة روحية، له شيخ ومقامات وأحوال ووظائف روحية، لا يهتم بقوانين الإيمان كما يهتم بتأسيس الإيمان في النفوس المسيحية والتركيز على الجانب الروحي والذوقي والصوفي، يهتم بالأذواق والأحوال أكثر من اهتمامه بالأفكار وقوانين الإيمان، لتصير بذلك المسيحية طريقة تربوية روحية صوفية، يرتقي فيها السالك المقام تلو المقام، ليصل إلى علام الغيوب. وهذا ما يظهر في برنامج ألفا، تؤسس إيمان الناس، وتبعث فيه الدفاء والأمل، وتعيد إليهم البسمة التي أفقدتهم



الحياة المادية المعاصرة، تضاهي في ذلك التصوف الإسلامي، الذي انتشر في الغرب بقوة، وتكونت له مؤسسات عديدة في الغرب، تبشر بمفاهيمه، وتبسط خطابات مختلفة، وتوشك اللغة الأنجليزية أن تصبح اللغة الأولى للتصوف الإسلامي.

8- يظهر أن الخطاب المسيحي الجديد قد صار يعترف بطريقة محتشمة بكثير مما وجهه إلى المسيحية القرآن من نقد، ولكنه في الآن ذاته يسدل على مقولاتها الكثيف من الحجب حتى لا تعرف أصالتها القرآنية، من ذلك القول بتحريف الكتاب؛ فقد كابرت الكنيسة بإنكاره قرونا طويلة، وها هي تعترف الآن بوجود أخطاء في الكتاب المقدس، وتثبت وجود الدخيل، ومع فشوها في كل نسخ الكتاب المقدس الذي يدفع احتمال كونها أخطاء، إلا أنها لا تعترف بالتحريف مكثفة بقولها إنها مجرد أخطاء، وهذا ما يثبت لك أن الخطاب المسيحي الجديد يرفض مقررات الإسلام علنا، ويقول بها في الآن ذاته، وأحسب أنها لو دامت على هذا المنوال، فستصير مسلمة في تصوراتها ذات يوم.

9- للإسلام دور كبير في تبلور خطاب التبشير الجديد؛ إذ أن الخطاب التبشيري الجديد، يحاول أن يتجاوز إكراهات واقع غربي معيش، يعد الإسلام أحد مقوماته؛ بل إن الكنيسة تذكر أن الإسلام هو الدين الثاني في أوروبا-إذا استثنيا تركيا وروسيا-، ويبلغ عددهم ما بين 23 و 27 مليون، ويزداد الأمر خطورة فيما يحاول أن يقوم به مسلمو الغرب الآن من عرض لعناصر الرؤية الإسلامية الخاصة بالمسيح والمسيحية، وبذلك صارت تنازع الرؤية المسيحية.



10- لا يصعب على المقارن أن يتبين أن جل المفاهيم التي أسست خطاب التبشير الجديد توافق المنظور الإسلامي في العديد من القضايا، كمفهوم الإيمان، ومفهوم ملكوت الله؛ كأنّ المسيحية صارت تبشر بمفاهيم إسلامية عن وعي أو عن غير وعي (54).

الهوامش

¹ - منها على سبيل المثال:

CONGRES INTERNATIONAL POUR LA NOUVELLE EVANGELISATION
(Vienne (Autriche) 23 mai - 1er juin 2003). (Paris 23 octobre - 1er novembre 2004)

2 - Programme alpha

3-S. Em. Le Card. Joseph Ratzinger, sur le theme de la nouvelle evangelisation, Jubié des catechistes, (Vatican. dimanche 10/09/2000), p1

4-Ibid, p5

5-Ibid.

6-Ibid

7-Ibid

8-Ibid

9-Ibid

10-Ibid

11-Robinson james, the nag hammadi library, (NHL), Harper San francisco, 1990, p15-80

12-Ibid

13-Spong john shelby, Liberting the gospel, (LTG), Harper San francisco, 1996, p10-100

14-Ibid

15-Pagels Elaine, the gnostic Gospels (TGG), vintage Books , NY, 1989, p 20-80

16 -Crossonm John dominic, The historical Jesus, (THJ), Harper collins, 1992, p20-200 and see too : Wilson. A.N, Jesus , a life, (JAL), Fawcett columbine, 1992, p 120-180.

17-Crossonm , The historical Jesus, p20-250, p100-120

18-Ibid



19-Ibid

20- جودت السعد، أو هام التاريخ اليهودي، الأردن: الاهلية للنشر والتوزيع، 1998، ص 24-25

-المصدر السابق

22- المصدر السابق

23- المصدر السابق، ص 26

24- المصدر السابق، ص 23-26

25- المصدر السابق، ص 26

26- Sprong John shelby, Why christianity must change or die, (WCMCD), Harper San Fransisco, 1998

27- أذكر منها على سبيل المثال الكنيسة التوحيدية (UNITARIAN CHURCH)

28- وأحسبك قد عرفت من يكون، إنه النبي محمد صلي الله عليه وسلم

29- راجع أفكار هذه المدرسة في:

Funkm Robert W, Honest to Jesus, (HTJ), Harper San Francisco, 1996, p3-40

—————, The Five gospel, (TFG), The jesus seminar, Macmillan publishing Co, NY, 1993 p5-15

30-Sprong, Why christianity must change or die, p5-40.,

ونشر هنا إلى ضرورة التمييز بين ما يقوله المسيحيون للعامة وما يذكرونه للخاصة، فلم يباع تداولي في هذا المضمار

31-Kebler Zernerm H, the Oral and the written gospel, (OWG), Indiana University Press, 1997, p20-100

32-S. Em. Le Card. Joseh Ratzinger, sur le theme de la nouvelle evangelisation, Jubié des catechistes, ((dimanche 10/09/2000)) (), p1

33- Card. Joseph, sur le theme de la nouvelle evangelisation, p1-2

34- Card. Joseph, sur le theme de la nouvelle evangelisation, p1-2

35-Ibid, p5

36- Ibid

37-Ibid

38-Ibid

39-Ibid

40-المصدر السابق. وإليك النص بالفرنسية:



"le vrai problème de notre temps est la "Crise de Dieu", l'absence de Dieu camouflée par une religiosité vide. La théologie doit redevenir réellement theologia, un discours sur Dieu et avec Dieu".

41-Ibid, p

42- المصدر السابق، ص5، ونصه بالفرنسية:

"Tout change, selon le fait que Dieu existe ou qu'il n'existe pas. Mais hélas! - même nous, les chrétiens, nous vivons souvent comme si Dieu n'existait pas (si Deus non daretur). Nous vivons selon le slogan: Dieu n'existe pas, et s'il existe, il n'a rien à voir. C'est pourquoi l'évangélisation doit avant tout parler de Dieu, annoncer l'unique vrai Dieu: le Créateur - le Sanctificateur - Le Juge"

43 -Ibid

44-Ibid

45-Ibid

46 -Ibid

47 -Ibid

48 -Ibid

49 -Ibid, p7

50 -Ibid

51 -Ibid

52 -Ibid

53-Ibid, p7

54 -Sprong, Why christianity must change or die, p5-40.